

تموز (يوليو) 2014

## استراتيجية داعش الاستعمارية في سوريا

فيلكس لغراندا<sup>1</sup>

تمكنت الدولة الإسلامية في العراق والشام (داعش) من السيطرة على أجزاء هامة من شمال شرق سوريا. تقوم هذه المنظمة الجهادية ببناء ما يسمّى "الدولة الإسلامية" في أكثر مناطق سوريا فقراً، والمعقل البعثي السابق. تعتمد استراتيجية "داعش" على استخدام النخبة المتشربة بالفكرة الجهادية، التي تشكّل العمود الفقري لبنيتها السياسية والعسكرية، وقد رُفِدَتْ بحلفاء محليين انتهازيين. عند النظر إلى طبيعة الداعمين المحليين للدولة الإسلامية في العراق والشام، وإلى خلفية مكوثاتهم السورية، يظهر جلياً أنّ الإيديولوجيا أبعد من أن تكون تفسيراً ذا صلة لإمكاناتها في حشد الدعم. وحقائقه كون "داعش" جسماً غريباً عن المجتمع السوري، قد تمكّن من فرض سيطرة استعمارية الطابع على محافظة الرقة وعلى جزء من المحافظات المحيطة بها، يعود إلى قدراتها على استغلال الانقسامات الاجتماعية، التي أُوجِدَتْ على مرّ السنوات الأربعين الماضية من نظام الأسد. بطريقة مماثلة للأسلوب الذي اتّبعه النظام لفرض سيطرته في المنطقة، لجأت "داعش" إلى مزيج من القوة، المحسوبية، واللعب على التنافسات المحلية لعقد تحالفات عريضة، ولكنها ضعيفة نوعاً ما، على مساحة الشمال-الشرقي من سوريا. ظهرت هشاشة هذه التحالفات عندما انشقت عن "داعش" أغلبية عناصرها السوريين في إدلب وحلب خلال الأيام الأولى من الهجوم الذي قاده الجيش السوري الحرّ عليها في كانون الثاني (يناير) 2014. خلال شهر واحد من القتال ضدّ "داعش"، والتفاوض مع داعميها المحليين، تمكّن الثوار من طرد المجموعة الجهادية من الشمال الغربي (إدلب وحلب) من سوريا. من المهم جداً فهم طبيعة اندماج "داعش" ضمن النسيج السياسي والاجتماعي السوري، بهدف تطوير استراتيجية واقعية فعّالة لكبح توسّع وتوطيد الحالة الجهادية التي يتم بناؤها حالياً في سوريا والعراق. لا يمكن أن تكون هذه الاستراتيجية عسكرية وحسب، بل يجب أن تكون مترافقة أيضاً مع مقاربة سياسية واجتماعية حذرة، تطبّق بهدف تكرار نجاح الثوار في الشمال-الغربي، حيث تمكّنوا من عزل العناصر الأجنبية عن داعميها المحليين، وبالتالي هزيمتها.

<sup>1</sup> باحث لدى مبادرة الإصلاح العربي.

بعد ستة أشهر من انطلاق الثورة السورية، قام بشار الأسد بزيارة الرقة لأداء صلاة عيد الأضحى. خلال هذه المناسبة، أعلن أغلب زعماء العشائر ولاءهم للرئيس. بعد سنتين، وباحتفاليةٍ مماثلة أعلن نفس زعماء العشائر ولاءهم هذه المرة لتنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام. هل تغير هؤلاء من كونهم أقوى حلفاء الأسد في المنطقة ليصبحوا جهاديين متشددين؟ الدولة الإسلامية في العراق والشام "داعش"، هي منظمة ارتبطت سابقاً بتنظيم القاعدة، وأصبحت فاعلاً رئيسياً في الصراع السوري، بسيطرتها الكاملة على مساحاتٍ واسعة في الشمال-الشرقي من سوريا. وتمكّنت "داعش" أن تجعل من أفقر منطقة في سوريا، والتي كانت معقلاً بعثياً، النموذج الأكثر تقدماً للدولة الجهادية. إضافةً إلى الجهاديين الدوليين من ذوي الخبرة والمقاتلين الأجانب المتشربين بأفكارها، يتألف المكوّن السوري في "داعش" من محسوبيات وحلفاء يسعون خلف مصالحهم. وقد ظهرت هشاشة هذه التحالفات عندما انشقَّ عن "داعش" أغلبية عناصرها السوريين في إدلب وحلب خلال الأيام الأولى من الهجوم الذي قاده الجيش السوري الحر على "داعش" في كانون الثاني (يناير) 2014. خلال شهرٍ واحدٍ من القتال ضدَّ "داعش"، إلى جانب التفاوض مع داعميتها المحليين، تمكّن الثوار من طرد المجموعة الجهادية من الشمال الغربي (إدلب وحلب) من سوريا.

من المهم جداً فهم طبيعة اندماج "داعش" ضمن النسيج السياسي والاجتماعي السوري، لتطوير استراتيجية واقعية، فعّالة لكبح توسع وتوطيد الحالة الجهادية، التي يتم بناؤها حالياً في سورية والعراق.

بدأت "داعش" مسيرتها كفصيلٍ جهاديٍّ ثائر ضمن غيرها من الفصائل، إلا أنّها قطعت سريعاً مع بقية الثوار، وفرضت سيطرتها على مساحاتٍ واسعة في الشمال-الشرقي من سوريا، وتقاتل في الوقت نفسه ضد الجيش السوري الحر والثوار الإسلاميين والمليشيات الكردية، وفي بعض الأحيان فقط، نظام الأسد. في بداية عام 2014، أدت الحملة الناجحة التي قام بها الجيش الحر ضدَّ "داعش" إلى طردها من أغلب مناطق محافظة حلب ومن محافظتي إدلب واللاذقية حيث اضطرت للانسحاب إلى معقلها في الرقة. عندما اندلعت حربٌ مفتوحة بين قوات الثوار و"داعش" ظهر تقسيمٌ جغرافي واضح بين المناطق التي يتواجد فيها كلٌّ من الجيش الحر و"داعش"، والمناطق التي تسيطر عليها "داعش" وحدها. منذ ذلك الحين، تُركّز "داعش" على مسألة تعزيز "دولتها الإسلامية" في الأراضي التي تتفرد فيها بامتلاك القوة. حيث تسيطر "داعش" على محافظة الرقة، وعلى الجزء الشرقي من محافظة حلب (جرابلس، منبج، الباب)، وكذلك على أجزاء من محافظتي دير الزور والحسكة المتنازَع عليهما. إنَّ الكادر والهيئات الدينية العليا تتكوّن من غير السوريين<sup>2</sup>. انتقل آلاف الجهاديين الأجانب إلى الشمال السوري، ليشكلوا العمود الفقري للتنظيم، وليكونوا مقاتليه الأكثر ولاءً.

<sup>2</sup> القادة المحليون: أجريت سلسلة من المقابلات في حزيران 2013 خلال زيارة إلى إدلب. ومع تعزيز سيطرتها في المحافظة، عينت أمراء محليين وعلى التوازي أوجدت نظاماً قضائياً. مقابلات أخرى أجريت في غازي عنتاب /تركيا في كانون الثاني (يناير) عام 2014 ( أثناء الهجوم بقيادة الجيش الحر على التنظيم)، وكذلك لقاءاتٍ عبر سكايب في حزيران 2014 .  
أما قيادة "داعش" العليا: ظهر قادة "داعش" الكبار في شباط 2014 على قناة العربية نيوز.

<http://english.alarabiya.net/en/News/2014/02/13/Exclusive-Top-ISIS-leaders-revealed.html>

## انهيار "داعش" السريع في الشمال-الغربي من سوريا

ظهرت "داعش" في سورية في نيسان عام 2013 عندما حاول أمير الدولة الإسلامية في العراق والشام أبو بكر البغدادي دمج حركته مع جبهة النصرة، التي طلب أن تكون الفرع السوري<sup>3</sup> لـ "داعش". وبذلك أصبحت الدولة الإسلامية في العراق، الدولة الإسلامية في العراق والشام. ولكن جبهة النصرة استمرت بالوجود بشكل مستقل لأن قيادتها<sup>4</sup>، وبدعم من القيادة المركزية للقاعدة<sup>5</sup>، رفضت هذا الاندماج. وهكذا، فقد انقسمت جبهة النصرة في المناطق التي يسيطر عليها الثوار في شمال سوريا، بين أولئك الذين يعترفون بسلطة أبي بكر البغدادي وانضموا إلى "داعش"، وبين الذين بقوا موالين لقائد جبهة النصرة السوري أبو محمد الجولاني. ولكن غالبية العناصر المتشددة وغالبية من مقاتليها الأجانب كانت تميل للانضمام إلى "داعش".

في حين كان ما تبقى من جبهة النصرة تحاول ألا تظهر كثيراً للعلن، ارتأت "داعش" أن تفرض سلطتها بسرعة، محطمة الهيكليات العسكرية والمدنية للثوار المحليين. ونادراً، ما كانت "داعش" تقاتل النظام، ولكنها ركزت على تعزيز تواجدتها في المناطق الواقعة تحت سيطرة الثوار، مقيمة إمارات صغيرة أو مستعمرات كتلك التي أقيمت في بلدة الدانا الحدودية في إدلب، وفي منطقة جبل الأكراد (اللاذقية)، أو أنها استوطنت في المساكن والفيلات المهجورة في ضواحي حلب. ابتداءً من صيف 2013 وحتى نهايته، قامت "داعش" باستهداف الناشطين وقادة الجيش الحر، إضافة إلى شخصيات اجتماعية بارزة، مسببة بذلك شعوراً منقراً كان يتنامى بين السكان المحليين. وفي معظم الحالات، وحتى بداية عام 2014، كانت قوى المعارضة تنسب لجواسيس النظام عمليات القتل هذه، كما لو أنها كانت تتجنب الانقسام بين الثوار.

في كانون الثاني (يناير) 2014 وبعملية منسقة ومعدة مسبقاً، هاجمت كتائب الجيش الحر المحلية كافة مواقع داعش في محافظتي حلب وادلب. وقد وصف العديد من المراقبين<sup>6</sup> نجاحات كانون الثاني (يناير) العسكرية ضد "داعش"، مركزين على أن عوامل، مثل التنسيق والدعم الخارجي والتوقيت الجيد (حيث كانت داعش منشغلة في السيطرة على الفلوجة)<sup>7</sup>، كانت من الأسباب الرئيسية وراء انتصارات الجيش الحر على داعش.

إلا أن العنصر الأهم في هذه الحملة، كانت الجهود السياسية والاجتماعية التي بذلتها شخصيات مدنية وعسكرية من الثوار لعزل المقاتلين الأجانب عن حلفائهم المحليين. كان الجيش الحر قادراً على الربح

<sup>3</sup> نيسان 2013 ، اعلان أبو بكر البغدادي عن قيام الدولة الإسلامية في العراق والشام.  
<https://www.youtube.com/watch?v=VKobKmBLYLU>

<sup>4</sup> نيسان 2013 رد ابو عدنان الجولاني (جبهة النصرة) على اعلان قيام "داعش"  
<https://www.youtube.com/watch?v=eB3Afi3hgA>

<sup>5</sup> رد أيمن الظواهري (القاعدة المركزية) على اعلان قيام "داعش"

<http://s3.documentcloud.org/documents/710586/ayman-zawahiri.pdf>

<sup>6</sup> المعركة بين داعش ومليشيات الثوار السوريين " ، جوشوا لانديس كانون الثاني (يناير) 2014

<http://www.joshualandis.com/blog/battle-isis-syrias-rebel-militias/>

<sup>7</sup> قوات القاعدة تستولي على الفلوجة مع تصاعد العنف في العراق " ليز سلاي، واشنطن بوست كانون الثاني (يناير) 2014 .

[http://www.washingtonpost.com/world/al-qaeda-force-captures-fallujah-amid-rise-in-violence-in-iraq/2014/01/03/8abaeb2a-74aa-11e3-8def-a33011492df2\\_story.html](http://www.washingtonpost.com/world/al-qaeda-force-captures-fallujah-amid-rise-in-violence-in-iraq/2014/01/03/8abaeb2a-74aa-11e3-8def-a33011492df2_story.html)

السريع، لأنّ الدعم المحلي لمجموعة الجهاديين الأجانب قد تداعى خلال يومين من القتال البسيط. وأثبتت العناصر السورية في تنظيم داعش أنّ ارتباطها مع التنظيم ارتباطٌ ضعيف، وأنّه نادراً ما يكون عقائدياً. ولم يكن انضمام المقاتلين السوريين إلى داعش أكثر من ضمانٍ لتأمين مرتّب شهري وفرصةً للحصول على أسلحةٍ ثقيلة وذخائر، كما كان طريقاً سريعاً وفعالاً لارتقاء السلم الاجتماعي. أثناء عملها على بناء الدولة الإسلامية، بموازاة هيكليات الثوار العسكرية والمدنية، قامت داعش بتوزيع مراكز السلطة على أتباعها. في حلب وإدلب، هناك الكثير من الأمثلة عن قادةٍ صغارٍ خائبين من الثوار الذين انضموا إلى داعش، ليصبحوا سريعاً "أمراء" محليين، بمقدورهم اعتقال أي شخصٍ والاستيلاء على الممتلكات الخاصة باسم "الدولة الإسلامية".

أصبحت بلدة الدانا معقلاً لداعش، وطُردت منها العائلات المرتبطة بكتائب الجيش الحر المحلية، في حين كسب الآخرون النفوذ بترحيبهم بداعش، واستقادوا مادياً من الوجود الجهادي. في صيف 2013، أصبحت هذه البلدة الحدودية مركز أعمال هام، كمحطة ترانزيت للمقاتلين الأجانب وكممرّ للمال ولغنائم الحرب التي تدخل وتخرج من البلاد.

في المرحلة ما قبل كانون الثاني (يناير) عام 2014، قام قادة الجيش الحر والناشطين بإقامة اتصالاتٍ سريةٍ مع داعمي داعش من المدنيين والعسكريين المحليين لإقناعهم بالانشقاق عن التنظيم. أعطيت إنذاراتٌ لمقاتلي داعش السوريين بتسليم أسلحتهم الثقيلة، والانضمام إلى كتائب أخرى. عندما فقد المقاتلون الأجانب الدعم المحلي تجمّعوا في مدينة سراقب في محافظة إدلب، حيث حاصرتهم فيها الكتائب المحلية لمدة أسبوعين. وفي 17 كانون الثاني (يناير) اقتحم الجيش الحر المدينة، وهرب من بقي من مقاتلي داعش إلى الرقة.

## تعزير وضع داعش في الشمال-الشرقي من سوريا

بعد هزيمة داعش في ادلب وحلب، انتقلت عناصرها الأكثر تشدداً إلى الرقة، حيث فرضوا سيطرتهم الكاملة على المحافظة، باستثناء بعض الجيوب المسيطر عليها من قبل النظام، وباستثناء المناطق الكردية. مع نهاية كانون الثاني (يناير) 2014، لم يعد أيُّ فصيلٍ آخر، عدا "داعش" مسموحاً بتواجده في الرقة<sup>8</sup>. انسحب الفصيل السلفي -أحرار الشام-، وانتقل من تبقى من أفراد الجيش الحر إلى العمل السري ولم تعد داعش عندئذٍ فصيلاً ضمن غيرها من الفصائل، إنّما أصبحت دولةً جهاديةً، كما يدلُّ اسمها.

لم يكن نجاح داعش في الرقة، وبدرجةٍ أقل قليلاً في المحافظات المجاورة كالحسكة ودير الزور، من قبيل الصدفة، في حين فشلت في المناطق الأخرى. ولا يمكن تفسير هذا النجاح بنتائج الانتصارات العسكرية، وحتى بدرجةٍ أقل بنوعية السكان الأيدولوجية المفترضة فقط. وتعود حقيقة كون داعش جسماً غريباً عن المجتمع السوري، تمكّن من فرض سيطرةٍ استعماريةٍ الطابع على محافظة الرقة وعلى جزءٍ من المحافظات المحيطة بها، إلى قدراتها على استغلال الانقسامات الاجتماعية التي أُوجدت على مرّ الأربعين سنة الماضية من نظام الأسد. بطريقةٍ مماثلةٍ للأسلوب الذي اتّبعه النظام لفرض سيطرته في المنطقة، لجأت "داعش" إلى مزيجٍ من القوة، المحسوبية، والتلاعب على التنافسات المحلية لعقد تحالفاتٍ عريضة، ولكن ضعيفةٍ نوعاً ما، على مساحة الشمال-الشرقي من سوريا.

<sup>8</sup> قامت داعش بانتهاء وجود الجيش الحر في الرقة عبر قتل أو اختطاف قياداته.

كانت محافظ الرقة هادئةً نسبيًا في بداية الثورة. وكانت عشائر الرقة تعتبر مواليةً للنظام، وغالبا ما تم استخدامها لقمع الانتفاضة. ولطالما عُرِفَت الرقة كمعقلٍ بعثيٍّ، وكأرضٍ للتجارب الاقتصادية الاشتراكية. إنَّ سلسلة الإصلاحات الزراعية (1960-1970)، وبناء سدِّ الفرات (1973)، والإصلاحات المعاكسة (بدءاً من نهاية السبعينات)، أعطت النظام إمكانيةً منح مكافأة الولاء، وأتاحت له إمكانيةً تهجير السكان، وتعزيز سلطته على القبائل غير الموثوقة، وعلى الأكراد، وعلى المناطق الحدودية مع تركيا. كانت نسبة انتساب سكان الرقة إلى حزب البعث من أعلى النسب في البلاد، وتزايد باستمرار تمثيل العشائر في البرلمان، وفي المراكز الرئيسية في أجهزة المخابرات، خلال حكم آل الأسد<sup>9</sup>.

بدأت الإصلاحات الاقتصادية في التسعينات من القرن الماضي، وتكثفت مع وصول بشار الأسد إلى السلطة عام 2000. كانت خصخصة المزارع الحكومية واحداً من أول الإجراءات التي اتخذها الرئيس الجديد<sup>10</sup>. أضعف الانفتاح الاقتصادي في قطاع الاقتصاد الزراعي شمال-شرق سوريا بدرجة كبيرة، وإمكانات المزارعين على مواجهة موجات الجفاف المدمرة 2006-2010.

ولعلَّ مصاعبُ المواطنين السوريين الاقتصادية يمكن أن تعتبر العاملَ المركزيَّ في تفسير انتفاضة آذار 2011. حيث فرَّ الآلاف من سكان سوريا الشمالية-الشرقية من مناطقهم جرّاء موجات الجفاف، باتجاه مناطق، أصبحت فيما بعد رافعة ثورة 2011، مثل داريا (أول المظاهرات)، وضاحية بابا عمر في حمص (بداية الصراع المسلح). وقد شارك أولئك، الذين فرُّوا إلى المناطق الحضرية بنشاطٍ في المظاهرات على امتداد البلاد. كان من أول ضحايا الثورة الذين قتلوا خلال احتجاجات درعا، أفراد من تجنُّع عشيرة شمّر، التي هاجرت مؤخرًا من الجزيرة في الشمال - الشرقي إلى مناطق حوران الجنوبية، التي كانت أقلَّ تأثراً بموجة الجفاف.

هذا هو سياق الاقتصاد الريفيِّ المدمر والقائم على المحسوبية الذي برزت فيه داعش كقوة رئيسية في شمال-شرق سوريا.

## الاستعمار الاستيطاني في الملاذ الآمن الجهادي الجديد في الرقة

تعتمد سيطرة داعش على غالبية أجزاء المناطق الشمالية-الشرقية من سوريا على فرض سيطرة عسكرية وسياسية بواسطة نخبة أجنبية مؤدلجة، وعلى بناء شبكةٍ محليةٍ من التحالفات مع القبائل والعائلات النافذة في المناطق. من الواضح أنَّ داعش جسّم غريباً عن المجتمع السوري وعن البيئة السياسية. عندما نريد فهم طبيعة سيطرة داعش على الأرض، فإنَّه من الضروري التمييز بين المقاتل الجهادي، الذي يكون في الغالب عراقياً، أو جزءاً من شبكة الجهاد العالمية، وبين حلفاء المصلحة المحليين.

بهدف إدارة المناطق المُستحوذ عليها حديثاً، تلجأ داعش إلى استعمال شكلٍ من الاستعمار الاستيطاني، حيث يستولي الأجانب على كلِّ المراكز السياسية والعسكرية الرئيسية تقريباً في "الدولة الإسلامية". وقد جاء بعض الجهاديين الأجانب من ذوي الخبرة التي اكتسبوها من جهادهم في السابق مع زوجاتهم وأطفالهم إلى الملاذ الآمن الجهادي الجديد، وتخلَّصوا من جوازات سفرهم كتَّعهُدٍ بهجر حياتهم السابقة.

<sup>9</sup> إعادة هيكلة الولاءات القبلية في منطقة الفرات الأوسط السوري (1958-2007) مريام ابابطة ، الدراسات الريفيه، 2009

[http://hal.archives-ouvertes.fr/docs/00/46/75/92/PDF/Ababsa-Etudes\\_Rurales\\_184.pdf](http://hal.archives-ouvertes.fr/docs/00/46/75/92/PDF/Ababsa-Etudes_Rurales_184.pdf)

<sup>10</sup> نفس المصدر

بيّن هذا الأمر التناقض الصارخ مع هيكليات الجيش الحر والمعارضة السورية المدنية، التي تعتمد على توفر إمكانية التطوع بين السكان المحليين، ولكن مع نقص الموارد المادية. ليس باستطاعة "داعش" أن تجنّد أعداداً كافية من المقاتلين والإداريين المحليين، لذلك هي مضطّرة للعمل بجِدِّ على استقطاب الأجنبي

## التحالفات القبلية الهشّة

ما إن تمكّنت داعش من تعزيز سيطرتها على محافظة الرقة، حتى قامت بحملة دعائية كبيرة للحصول على مبايعة كبار زعماء القبائل المحليين أو تأديتهم قسم الولاء لها. نُظمت المراسم في تشرين الأول (أكتوبر) 2013، حيث أعلن أربعة عشر ممثلاً قبلياً، وبشكل علنيّ، دعمهم لـ "الدولة الإسلامية"<sup>11</sup>. نفس هذه القبائل، وبنفس المراسم، سبق وأعلنت ولاءها لبشار الأسد أثناء زيارته للرقة في شهر آب (أغسطس) من عام 2011<sup>12</sup> بعد أشهر من بداية الثورة، وفي وقت لم يكن الصراع المسلّح قد بدأ بعد. وبما أنّ نظام الولاء القبليّ هو نظامٌ معقّدٌ، يجب النظر إلى المواقف العلنية التي يتخذها الزعيم ببعض الحذر. ففي حين تدّعي أيديولوجية البعث محاربة الطائفية والقبلية، فإنها في الواقع تستخدم كليهما لتفريق وتسود، وبالتالي لتعزّز سلطتها. وبدلاً من قمع القبلية، تلاعب الأسد بالنظام القبلي، ساعياً إلى إضعاف سلطة القبيلة التقليدية الشاقولي لبروّج لنخبة قبلية جديدة، ولكنها أكثر تفتتاً<sup>13</sup>. وكنتيجةً لهذا، لا يستطيع أي فريق الادّعاء اليوم بأنّه يتمتّع بدعم كاملٍ من كلّ أفراد القبيلة أو العشيرة. مع ذلك، تبقى الروابط القبلية وإمكانية تحشيدها أمراً حاسماً. هذا يفسّر الجهود التي يقوم بها كلّ المحاربين لكسب الدعم القبلي. الاتجاه العام هو أنّ السلطة القبلية التقليدية تميل، علنياً على الأقل، للوقوف بجانب الجانب الأقوى آنياً، بهدف تجنب القبيلة العنف أو القمع الجماعي. على الرغم من ذلك، ولنهم من هم اللاعبون المحليون الذين يدعمون أو يعارضون داعش، وماهي الأسباب وراء هذه المواقف، يجب إلقاء نظرة متفحّصة إلى ما وراء هذه التعهدات الرسمية الواضحة بالولاء.

كانت عشيرة البريج في الرقة على سبيل المثال، وهي جزءٌ من قبيلة الفضلة الكبيرة، تُعتبر الحليف المحليّ الأكثر قرباً من النظام. كان أفراد من عشيرة البريج يشكلون القسم الأكبر من المليشيات الموالية للنظام (الشيّحة)، والتي كانت تستخدم لقمع المتظاهرين في عام 2011 ولمهاجمة النشطاء في الرقة. نفس العشيرة اليوم، هي من أكثر الحلفاء المحليين أهميةً في صفوف داعش. إن لم يكن كلّ أعضاء عشيرة البريج قد اتخذوا موقفاً مشابهاً، فإنّ تمثيل العشيرة كبيرٌ بين مقاتلي المحافظة المحليين المنضوين في صفوف داعش.

هناك الكثير من الأمثلة عن انتقال نفس الأشخاص، العائلات، والعشائر من مواقف الدعم المتحمس للنظام إلى الولاء لداعش. وقد غدّت هذه النماذج نظريات المؤامرة حول الجهاديين صنيعة النظام. من الواضح أنّ النظام سهّل متعمداً، وبطرق متنوّعة، نموّ هذه المجموعات من خلال إطلاقه سراح السجناء الجهاديين في وقتٍ مبكّرٍ من الثورة، وتجنّب قتالهم، أو قصف مواقعهم، وكذلك التسلّل والتلاعب ببعض المجموعات خدمةً لمصالحه. يجب البحث عن أسباب هذا التحوّل، في الاستراتيجيات الأكثر براغماتية التي يتبعها

<sup>11</sup> عشائر الرقة تتعهد بالولاء للدولة الإسلامية في العراق والشام <https://www.youtube.com/watch?v=WsLmxoQR6xQ>

<sup>12</sup> تعهد قبائل الرقة بالولاء لبشار الأسد. <https://www.youtube.com/watch?v=CPgLh0--Atg>

<sup>13</sup> الشبكات القبلية السوري ومشاركتها في الثورة السورية، كارول ا. أوربلي، نيكولاس هيراس، 2012.

[http://www.jamestown.org/single/?no\\_cache=1&tx\\_ttnews%5Btt\\_news%5D=39452#.U481A\\_mSwv](http://www.jamestown.org/single/?no_cache=1&tx_ttnews%5Btt_news%5D=39452#.U481A_mSwv)

اللاعبون المحليون. تحتاج مثل هذه المجموعات، في كثيرٍ من الأحيان، إلى قوةٍ كبيرةٍ كـ "داعش" للدفاع عن مصالحها، التي كانت محميةً من قبل النظام، أمام القبائل الأكثر قوةً، وفي مواجهة الأكراد، واليوم أمام بعض قوى المعارضة.

## استغلال التنافسات المحلية

جعل الانقسام القبلي، العرقي، والطبقي المعقّد في الشمال-الشرقي السوري، من المتاح لقوةٍ خارجيةٍ كـ "داعش" أن تبني بسرعة، ولو مؤقتاً، تحالفاتٍ تستند إلى التوتّرات المحلية.

قام الانتداب الفرنسي باستغلال التنافس القديم حول المصادر الاقتصادية، وكذلك فعل النظام الأسدي، وهذا ما تفعله مختلف الفصائل المتقاتلة للسيطرة على الشمال-الشرقي. حيث مكّنت الإصلاحات الزراعية والإصلاحات المضادة خلال حكم الأسد الدولة من توزيع الموارد، والمتاجرة بالولاءات. واليوم، يعيش أكثر السوريين فقراً، على أغنى الأراضي (المناطق الشمالية-الشرقية) السورية.

غدت تجارة النفط، في مناطق سورية الشرقية، مصدراً هاماً لتمويل مختلف لاعبي الصراع. فبشكلٍ مفاجئٍ للجميع، قام مؤخراً الشيخ نواف البشير، الزعيم المرموق في قبيلة البكارة ذات النفوذ، بمبايعة "داعش". الشيخ بشير هو سياسي سوري قديم وعضوٌ في مجلس الشعب بداية التسعينات من القرن الماضي، وشارك لاحقاً عام 2005 في إعلان دمشق مطالباً بالإصلاحات الديمقراطية، وانضمّ في 2012 إلى المجلس الوطني السوري. ولا يعود دعم عائلته مؤخراً لداعش إلى منطلقٍ عقائديٍّ، ولكنّه يعود إلى حاجتها للأمن، وللوصول إلى الموارد. تصادف أنّ عشيرته تقيم في منطقة الكسرة المحاذية لضفة نهر الفرات الشمالية على الطريق الواصل بين الرقة ودير الزور. وقد احتاجت "داعش" الحصول على ممرٍّ آمنٍ على هذه الطريق لتخوض معاركها ضد الثوار للسيطرة على وادي الفرات، وأخيراً لربط معقلها في الرقة مع المناطق الغربية من العراق، حيث كانت تجهّز للاستيلاء على الموصل وتكريت. مُنحت عشيرة البشير السيطرة على حقول النفط لقاء دعمها العلني لداعش، والعبور الآمن على الطريق الرقة-دير الزور على طول نهر الفرات<sup>14</sup>.

لعبت "داعش" أيضاً على التناحر المحلي بين القبائل العربية والأكراد، وكذلك بين القبائل نفسها. لم تقدم الإصلاحات الزراعية، في الستينات والسبعينات من القرن الماضي، الكثير في مسألة توزيع الأراضي الإقطاعية، إلا أنّ السلطة تمكنت من توطين القبائل الموالية على طول الحدود الشمالية. منذ بداية الثورة، أصبحت حدّة التوتر مرتفعةً بين القبائل العربية الأصلية والأكراد من جهة، وبين الموطّنين العرب من جهةٍ أخرى. في مثل هذه السياق الثوري، وفي ظلّ غياب الدولة، وعدم وجود حمايةٍ لهؤلاء المستوطنين في مواجهة القبائل الأقوى وفي مواجهة الأكراد، لعب هذا الواقع الدور الرئيسيّ في دفعهم إلى أحضان "داعش" كقوةٍ وحيدةٍ قادرةٍ على الدفاع عن مصالحهم.

تعتبر معركة تل حميس، في محافظة الحسكة، التي اندلعت في شباط (فبراير) 2014، مثلاً واضحاً على مقدرّة "داعش" على كسب الدعم القبلي، باللعب على وتر التنافس المحلي. يظهر شريط فيديو<sup>15</sup> تمّ تداوله

<sup>14</sup> مقابلات مع مراسلين محليين في حزيران (يونيو) 2014 .

<sup>15</sup> شباط (فبراير) 2014 ، تل حميس (الحسكة) ، اجتماع القبائل العربية مع داعش

<https://www.youtube.com/watch?v=NE7DJUYaAlg>



على شبكة الإنترنت قبل المعركة، حشداً من رجال القبائل وزعماءهم، ووفداً على ما يبدو أنه لعناصر من "داعش". خاطب زعماء القبائل الحشد، محاولين تجييشهم ضد "PKK"<sup>16</sup>، وضد القبائل العربية المنافسة، مستخدمين خطاباً عربياً شوفينياً. في نفس الفيديو، يظهر رجلٌ يمثل "داعش" يستخدم خطاباً أكثر جهاديةً، ويشرح أنّ "الدولة الإسلامية" لا ينفصها سوى الرجال، وأنه سيتم تزويد المقاتلين، الذين سينضمون إليها بكل ما يلزم من أسلحةٍ وذخائر. نجحت "داعش" بدخولها في تحالفاتٍ مع القبائل العربية المدفوعة بمشاعر معاديةٍ للأكراد، مما أدّى إلى هزيمة وحدات الحماية الكردية<sup>17</sup> في محاولاتها السيطرة على مدينة تل خميس العربية.

## الحرب العسكرية، السياسية والاجتماعية القادمة ضد "داعش"

ظهرت بوادر التفتّت لدى تحالفات داعش المحلية الهشة منذ الآن. في الرقة انشق عشراتٌ من مقاتلي عشيرة بريج باستمرار عن "داعش"، بل اشتبكوا معها أواخر نيسان (أبريل) 2014، في أعقاب اعتقال امرأةٍ لا تضع برقاً يغطي كامل الوجه.<sup>18</sup>

يقوم تحالفٌ من عدّة قبائل عربية ومن الجيش السوري الحر والأكراد، بقتال داعش سياسياً وعسكرياً. حتى الميليشيات الكردية لديها الامكانيات لقتال الجهاديين، ولكن قيامها بذلك منفردة ينفّر القبائل العربية، وخاصةً العرب المستوطنين، مما قد يدفعهم الى أحضان "داعش". فقد خسر الأكراد في تل خميس لأنهم هاجموا "داعش" بدون التنسيق مع القبائل المحلية. من ناحيةٍ أخرى، فقد تعاونت قبائل شمّر مع وحدات الحماية الكردية على طرد "داعش" من اليعربية<sup>19</sup>. في تحالفهم لقتال كلّ من النظام و"داعش" شكّلت الكتائب المشتركة من العرب والأكراد، مثل قوات كوما<sup>20</sup>، وجبهة الأكراد<sup>21</sup> (مستقلة)، جسراً حيويّاً بين المجموعتين، الأمر الذي سمح لهم تحقيق نجاحاتٍ على الأرض. وقد ألهم هذا النموذج، على ما يبدو، السلطات التركية لتصبح أقلّ تسامحاً (دعماً) للمجموعة الجهادية المعادية للأكراد في الشمال: وضعت تركيا "داعش"، ومن ثمّ جبهة النصر<sup>22</sup> على لائحة المجموعات الإرهابية. الى حدّ تدّعي تقاريرها دعمها لكتائب الجيش الحر في الرقة بالرغم من تعاون الاخير مع الأكراد.<sup>23</sup>

حتى حزب PYD ذو الميول الانفصالية بدأ باتباع موقفٍ منفتحٍ تدريجياً على العرب، مشجعاً الانضمام الى قوات الحماية الكردية، وداعياً إلى المشاركة في الإدارة المحلية الذاتية للمناطق المختلطة، ولكن بإشرافه. وفي هذا السياق، أعلن صالح مسلم، زعيم الحزب الديمقراطي مرارا أنه لن يتم طرد العرب المستوطنين من أراضيهم، كوسيلةٍ لطمأنتهم حول نوايا الأكراد، ولسحب البساط من تحت أقدام

<sup>16</sup> الخطاب المعادي للأكراد يكون غالباً موجهاً إلى (وحدات الحماية الكردية)، و(حزب العمال الكردستاني)  
<sup>17</sup> وحدات الحماية الكردية، هي ميليشيا كردية يهيمن عليه حزب الاتحاد الديمقراطي، التي تسيطر بأغلب المناطق التي يسكنها الاكراد شمال سوريا.

<sup>18</sup> لقاء على السكايب مع نشطاء في الرقة، حزيران 2014.

<sup>19</sup> القبائل العربية منقسمة بين الأكراد والجهاديين ، كارل دروت، أيار (مايو) 2014

<http://carnegieendowment.org/syriaincrisis/?fa=55607>

<sup>20</sup> قوات الكومالا تعلن انضمامها إلى جبهة الثورة السورية ( جزء من الجيش الحر)

<https://www.youtube.com/watch?v=aGCC3jDQA28>

<sup>21</sup> صفحة جبهة الأكراد على الفيس بوك <https://www.facebook.com/jebhet.elekrad>

<sup>22</sup> ادرجت تركيا مجموعة سورية من الثوار المرتبطة بالقاعدة على لائحتها للإرهاب في اشارة الى القلق المتنامي من المتشددين 2014

[www.huffingtonpost.com/2014/06/03/turkey-jabhat-al-nusra-syria\\_n\\_5437834.html](http://www.huffingtonpost.com/2014/06/03/turkey-jabhat-al-nusra-syria_n_5437834.html)

<sup>23</sup> عدة مقابلات عبر السكايب مع سكان الرقة، ومع سكان تل أبييض الحدودية مقربون من الجيش الحر المحلي اقترح دعم لواء ثوار الرقة.



"داعش"<sup>24</sup>. كان آخر تعاون للجيش الحر مع الأكراد ضد عدوهم المشترك خطوة هامة باتجاه إضعاف "داعش" في معقلها في الشمال-شرقي، ولقطع الدعم المحلي عن عناصرها الأجنبية.

يلقي الرصد الدقيق لأساس العلاقة بين البنى الاجتماعية المحلية، ولشكاوى السكان من جهة، ولصعود المجموعات الجهادية الأكثر تشدداً من جهة أخرى، الضوء على بعد هام من الصراع متعدد الطبقات. مع الثورة، وبعد عقود من إفقار السكان الريفيين بسبب سياسة الانفتاح الاقتصادي المتوحشة والتدهور البيئي، يتوقع السكان المحليون فوائد اقتصادية متطورة في الشمال-الشرقي السوري الغني بالبترو. مع ذلك، لا وجود لدوافع عقائدية تفسر الدعم الذي تمتعت به "داعش" من السكان المحليين في سوريا. هذه الأمور يجب أخذها بالحسبان، لأنها تشكل قاعدة استراتيجية فعالة لمواجهة "داعش" لا تعتمد على الوسائل العسكرية وحسب. يتطلب قتال "داعش" قدرات نارية كافية، وتنسيقاً عسكرياً وثيقاً بين قوات الثوار. لكن الحل لا يمكن أن يكون عسكرياً فقط. يجب تطبيق مقاربة سياسية واجتماعية حذرة بهدف تكرار نجاح الجيش السوري الحر في الشمال-الغربي (حلب-الذوقية)، حيث تمكن من عزل عناصر "داعش" الأجانب عن داعمهم المحليين، وبالتالي هزيمتهم.

---

<sup>24</sup> حاكم الشعب: مقابلة آرون لند مع صالح مسلم، شباط 2014، كارنيجي إيدومنت من أجل السلام العالمي <http://carnegieendowment.org/syriaincrisis/?fa=54675>

الأوراق الصادرة عن مبادرة الإصلاح العربي تعبر عن رأي كاتبها ولا تمثل بالضرورة موقف أو رأي المبادرة.

حقوق النشر محفوظة لمبادرة الإصلاح العربي.

كل إعادة نشر للورقة أو استخدام جزء منها يتطلب الحصول على موافقة المبادرة.

© مبادرة الإصلاح العربي تموز/يوليو 2014

[contact@arab-reform.net](mailto:contact@arab-reform.net)